

الكتابة ما بين زمنين



08 نوفمبر 2018 - 08:29

د. إبراهيم أبراش

لم يترك التقدم العلمي والتكنولوجي دريا من دروب الحياة المعاصرة إلا وترك بصماته الإيجابية وأحدث فيه ما يشبه الانقلاب أو الثورة ، في الطب والزراعة والثقافة والصناعة والتعليم ووسائل النقل والاتصالات والمعلوماتية الخ ، مع ذلك فإن هذه الثورة العلمية أثارت تخوفات عند بعض الفلاسفة والعلماء أنفسهم الذين حذروا من هذه الوتيرة المتسارعة للعلم والتكنولوجيا وتأثيراتها السلبية على نمط معيشة البشر ومستقبل البشرية مثل : تلوث البيئة البرية والبحرية والتأثير على طبقة الأوزون ، الثورة البيولوجية والتلاعب بالجينات البشرية ، تطور الأسلحة التقليدية والنوية ونتائجها المدمرة في الحروب والنزاعات ، تفكك أو ضعف العلاقات الاجتماعية والأسرية ، انتشار ما تسمى أمراض العصر كالتوتر والقلق والضغط والخوف من المستقبل الخ ، تميط الانسان بحيث أصبح ذي بُعد واحد على حد قول الفيلسوف هيربرت ماركوز في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" ، صناعة المجتمع الاستهلاكي وتباعد الفجوة بين طبقات المجتمع ، الافتقار لبساطة الحياة الأولى والحنين إليها كما عكسته ظاهرة الهيببيز Hippies في السبعينات والثمانينيات ثم جماعات الخضر و تزايد النستالجيا nostalgia بمعنى الحنين إلى الماضي بما يتضمن من رفض للحاضر أو الاغتراب عنه

لا غرو أن إيجابيات العلم والثورة التكنولوجية ثم المعلوماتية والبيولوجية أكثر بكثير من سلبياتها ، هذا ناهيك أن التطور العلمي والتكنولوجي وبالرغم من أنه نتاج العقل والجهد البشري إلا أنه أصبح مفروضا على البشر كثقافة وسلوك ونمط حياة وعلى الدول كضرورة حتى تحافظ على بقائها وتحل مكانتها بين الدول الأخرى وتلبي احتياجات شعبيها ، وبالتالي لم يعد الأخذ بناصية العلم والتحضر خيارا إلا لمن يريد العيش في الكهف . لقد أصبحت قصة البشرية مع العلم وثورة المعلوماتية تشبه رواية الكاتبة الإنجليزية ماري شيلي (1797-1851) حول فرانكشتين ((Frankenstein أو المخلوق الذي تمرد على خالقه حيث طوعت الثورة العلمية والتكنولوجية البشر لها .

كما سبق الذكر ، كثيرة المجالات التي تأثرت بالثورة المعلوماتية والرقمية وخصوصا ما يتعلق بمجالات الكمبيوتر والانترنت وتأثيرها على الكتابة والتأليف والنشر . صحيح ، إن الكاتب فقد متعة استعمال القلم والورق عند الكتابة وملامسة صفحات الكتاب أو الصحيفة وتقليبها عند القراءة وهو على كرسيه أو متكئا على الأرض أو ممتددا في سريره منتشقا العبق الخشبي للورق ، إلا أنه في المقابل استفاد من سرعة الكتابة على الكمبيوتر وحفظ ما يكتب مباشرة وتعديله ، كما أن الكمبيوتر والانترنت جعلتا عملية الحصول على المراجع والتواصل مع القراء ودور النشر أكثر سهولة وسرعة .

وسأعرج على جزئية صغيرة عايشتها ومر بها كثيرون ممن يشتغلون في مجالات الكتابة والبحث العلمي . فإذ أعود بذاكرتي إلى منتصف الثمانينيات حيث بداية تعاملي مع

الكتابة والبحث وأتذكر كيف كان الكاتب يجد صعوبة في عملية الكتابة سواء في حصوله على المراجع والأدبيات اللازمة لموضوع بحثه - كتاباً أو رسالة جامعية أو بحثاً علمياً أو مقالة- أو في نشره وتوزيعه عبر الصحف والمجلات ودور نشر الكتب ، ألمس التحول المذهل الذي طرأ في هذا المجال .

فمن خلال تجربتي الشخصية المتواضعة وعندما بدأت مشواري في مجال البحث الأكاديمي والكتابة السياسية اضطررت للسفر من الرباط في المغرب إلى بيروت ودمشق عام 1979 للحصول على كتب ووثائق حول رسالة الماجستير ومقابلة شخصيات سياسية معنية بموضوع بحثي ، ونفس الأمر بالنسبة لرسالة الدكتوراه حيث سافرت للبلدين بالإضافة إلى القاهرة عام 1982 للحصول على المراجع اللازمة . وأذكر أنني احتجت لكتاب باللغة الإنجليزية حول موضوع بحثي منشور في لندن وورد في أحد المراجع ، وبحث عنه في مكتبات المغرب ولم أجده فتواصلت مع المركز الثقافي البريطاني في الرباط للاستفسار عن إمكانية الحصول عليه وكان عليّ أن انتظر شهراً تقريباً ليعلموني بوجود الكتاب وثمنه ، وبعد أن دفعت ثمنه مقدماً انتظرت أكثر من ثلاثة أشهر حتى وصلني الكتاب .

أما في مجال الكتابة والنشر فقد كانت أولى كتاباتي بداية الثمانينيات في صحف ومجلات تصدر في بيروت كمجلة المستقبل العربي و في لندن صحيفة الشرق الأوسط والحياة والقدس العربي ، وفي الكويت صحيفة القبس الدولي بالإضافة إلى الصحافة المغربية . في ذلك الوقت كانت الكتابة على الورق بداية بما تتضمنه من متعة ملامسة القلم للورقة ومتعة امتلاء الصفحة وبداية صفحة جديدة ومتعة نفاذ الحبر من القلم والبحث عن قلم جديد أو تعبئة أنبوبة القلم بالمداد ،وبعد ذلك تأتي مرحلة طباعة ما هو موجود على الورق بالديكتيلو ((dactylo)) أو الآلة الكاتبة ثم تصحيح ما هو مطبوع يدوياً وإعادة طباعته ، وأخيراً تأتي مرحلة مراسلة المعنيين بالنشر ، حيث يتم وضع المقال أو البحث في مظروف والتوجه لمركز البريد لوضع الطابع البريدية المناسبة مع جهة الإرسال ، وكان علينا الانتظار لأسبوع أو أكثر حتى تصل الرسالة لجهتها ووقت مثله حتى نتلقى الرد ، ومع تشريف الفاكس لبلداننا العربية أصبح التواصل أسهل مع كلفة أكثر .

مع ظهور الكمبيوتر والانترنت أصبحت الكتابة والتواصل أكثر سهولة ، حيث ،ومن خلال تجربتي الشخصية ، نكتب مباشرة على الكمبيوتر ونصحح ونعدل مباشرة ونحفظ لوقت لاحق ما يتم كتابته ، وأثناء عملية الكتابة نستطيع الاستعانة بالمراجع وإجراء عملية التوثيق مباشرة من خلال الانترنت أو ما هو مختزن في ذاكرة وملفات الكمبيوتر ، وبعد إتمام الكتاب أو البحث أو المقالة نستطيع إرساله مباشرة وخلال ثوان إلى جهات النشر المطلوبة وقد نتلقى الرد بعد دقائق أو ساعات .

وأخيراً فإن الإنسان المعاصر يعيش حالة من التنازع الداخلي أو الوجداني ما بين حنين للماضي ومسايرة للحاضر وتفاؤل بالمستقبل . قال أحد الفلاسفة بأن داخل كل إنسان طفل وهو كلام صحيح ، ونضيف ما هو قريب من هذا المعنى بأن كل إنسان يحمل في داخله تاريخه الشخصي ، يتوق من خلاله لما هو جميل منه ويستحضره دوماً كنوع من النستالجيا وفي نفس الوقت يحاول أن يُبعد من الذاكرة ما هو مؤلم ومُحزن أو شاهد على أخطائه وزلاته ، ولكن دائماً تكون الغلبة للواقع حيث يستطيع الإنسان الانسلاخ عن تاريخه ولكنه لا يستطيع أن يهرب من الواقع واستحقاقاته ، ومع مرور الوقت سيتحول الحاضر بدوره إلى ذكرى حيث الحاضر مستقبل الماضي وفي نفس الوقت ماضي المستقبل .

Ibrahemibrach1@gmail.com